كومة العظام

ارتكز بمرفقيه على سطح مكتبه الكبير.. واحتوى رأسه بين راحتيه.. وظل على حاله هكذا.. لا تستطيع أن تجزم إن كان ممعنًا في التفكير.. أو نائمًا.. أو أنه يبكي!.. ولكنه بالقطع ليس ميتًا، فأنفاسه تتردد.. رفع رأسه فبانت عيناه حمراوين وجفونه متكسرة.. امتدت يده إلى صندوق خشبي مطعَّم بالأبنوس.. سحب لفافة تبغ أشعلها بفتور.. اجتذب نفسًا عميقًا.. وآخر.. وثالثًا أشد عمقًا.. أحاطته دوائر الدخان، فبدا كصيد في شبكة.. تصاعد الدخان متثاقلًا.. جعل ينظر إلى ما حوله.. توقف بصره على صورة أمه الكبيرة.. البشرة بيضاء بملامح طيبة.. تزينها ابتسامة وادعة.. كانت تلك الابتسامة أوضح ملامحها.. لم تختف، ولم تبهت حتى ساعة منيتها.. ما زال يذكرها.. وها هي يشع النور في وجهها.. لا ريب أن الفنان الذي أبدعها قد تأثر بها، فخرجت لمساته معبرة صادقة.. ويذكر صوتها الدافئ مبعث الطمأنينة.. سرح بخياله بعيدًا حيث طفولته.. ما حلم بشيء قط.. كانت كل رغباته واقعًا ماثلًا أمامه وبين يديه الصغيرتين.. كان وحيد أبويه ووريث عزهما.. وسليل عائلتيهما ذوي الجاه والنفوذ.. كم دلَّله والده.. وكان يرى فيه صباه السعيد.. حول بصره إلى خارج حجرته.. ارتسمت على وجهه الكآبه.. أيضًا، يذكر ساعة الحائط النادرة، وعقرب الثواني النطاط.. ها هو يثب في رشاقة.. الساعة تدق في ماضيه.. تشير إلى لحظات السعادة.. ويذكر صنوف

الزهريات وأشكالها.. كانت منتشرة في كل مكان من القصر.. وكانت تزخر بأغرب الزهور وأندرها.. كتم أنينه في صدره، فمن يسمع شكواه.. وعلى مَن يثور؟ فخرج الدخان المتكاثف من النافذة حاملًا ذكريات الطفولة.. الصور تتوافد في مخيلته.. يرى صباه.. كاد يقهقه من شدة الحنق.. أيضًا، كتم ضحكة، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة.. مُرَّة.. كانت الحياة رائعة.. لم تكن الفرحة تغادر قلبه.. تناول لفافة أخرى.. أشعلها واجتذب نفسًا عميقًا ونفثه.. غطى الدخان صورة أمه.. وطفق يستعيد الذكريات..

في شبابه، ركب عربة خاصة فارهة.. طاف عواصم أوربا.. كان يرى احترامه في عيون الناس.. وفي انحناءاتهم ومجاملاتهم.. وما سمع اسمه مجردًا من الألقاب.. أطفأ لفافته بعصبية.. تدريجيًّا انقشع الدخان.. ارتكنت ابتسامة أمه في زاويتي عينيها لتبدو ساخرة لاذعة.. التفت إلى ناحية أخرى، ومع ذلك تحتل رؤيته.. اندفعت الدماء في عروقه حارة.. قام.. خطا إلى البهو الكبير.. لم يلتفت إلى صورة أمه.. جعل يجوس في القصر.. يدقق النظر في محتوياته.. كأنما يراها لأول مرة.. الصمت متربع إلا من وقع خطواته القلقة.. قطع الأثاث غشيتها الأتربة، فطمست جمالها ورونقها.. بدت كتلًا ممسوخة لا تعني شيئًا، ولا تضيف إلا القبح.. تأملها متحسرًا.. داخله يئنُّ.. ما زال يحوم حول الأشياء.. توقف في مكان بعينه.. تفرس في الحائط المواجه.. أين الساعة الكبيرة؟!.. كانت تحفة رائعة.. نظر في ساعة

يـده.. الثانيـة تمامًـا.. الـساعة لا تـدق دقتـين.. ولا دقـة واحدة!.. كانـت هنـا!.. هنـا في هـذا المكـان!.. رنـا إلى السقف.. إلى الجدران.. إلى الأرضية.. كانـت التحـف في كل شبر.. بقيت أشلاء عز وبقايا ثراء.. نفايات يجـب أن تُعدم.. أو تقذف في جُب.. اقترب من إحـدى النوافـذ.. أشرف منهـا حيـث حديقـة القـصر.. الحديقـة خربـة.. خيمـت عليهـا قوافـل العنكبـوت.. وتـسكنها الهـوام والجرذان والخفافيش.. هجرتها الأطيار.. كانـت غنَّـاء.. تزخر بأحلى الـثمار والغريـب في عـالم النبـات.. وكانـت تضوع فيها أعطر الروائح.. وكانت تصدر منهـا أعـذب الألحـان.. كـان.. وكـان.. اسـتطرد في رؤيـة الأطـلال.. استطرد - أيضًا - في هذيانه.

عربتي؟.. كانت هناك!.. كانت حمراء كالوردة.. كـم قطفت منها ورودًا لأحظى بقبلات أمي..

يتحسس خده..

كم كانت قبلاتها حنون.. تُرى أيـن العربـة؟!.. وأيـن البستاني؟.. وأين أمي؟.. بالأمس كان القـصر يـشع بهـاء كالقمر في كبد الـسماء.. أصـبح خرابًـا يبابًـا تعـشش فيـه البوم.. نأى عن نافذة القصر المطلة على الأطلال.. واصـل زحفه.. وقف أمام كتلة صدئة مترية.. ناتئة عـن الحـائط.. إنها خزانة النقـود والمجـوهرات.. امتـدت يـده تفتحهـا.. غشيته رهبة.. ودس يده في أحشائها المعتمة.. عبثت يده في جوانبها.. عثـرت عـلى وريقـات.. أخرجهـا ونظـر إليهـا مليًّا.. إنها البقية الباقية.. أوراق لا تُغني من جوع.. تتمزق لها الأحشاء حسرة.. بخياله قرأ طالعه.. دنيـا مـن الظـلام

يقف في أعماقها كحشرة هينة.. تعبث بها النسائم ساخرة.. تطيرها الرياح إلى بئر سحيقة.. الحشرة تغوص وتستغيث.. وأنّى يُنصت إلى صراخ الحشرات؟ سقطت من يده الأوراق.. سعى إلى نافذة مغلقة.. فتحها ليطل على المارة.. لا أحد يهتم بالنظر إلى القصر.. أصبح لا يستحق نظرة.. بالأمس كان محط أنظار العيون الذاهلة الحاسدة.. غدا ماردًا حقيرًا لا يحظى بالنظرات العابرة.. لم يحتمل.. ودع النافذة.. حث خطاه.. يسمع صدى وقعها.. وقف أمام أحد الأبواب.. التقط أنفاسه.. دفعه بقدمه.. خطا داخل الحجرة.. واصل سيره بهدوء يخفي بين طياته ثورة.. توقف أمام فراش مهلهل عليه كومة عظام تشكل هيكلًا آدميًا.. تتردد منه أنفاس واهنة.. ارتطمت ضرفة النافذة.. نسمة هواء لسعت وجهه!.. عبثت بأوراق كتاب، فأصدرت صوتًا.. نظر إلى الكتاب الوحيد بين حشد من الرفوف والأدراج.. ابتسم ابتسامة صفراء.. الكتاب يئن لوحشته.. جعل يهمس بأسباب عذابه.. قطع الهمسَ صوتٌ خفيضٌ يخرج من الكومة المتداعية:

- أأنت يا ولدى؟

لم يجب.. فاستطرد الأب.. الكومة:

- لا تجزع يا بني.. فأملي كبير في الشفاء.. سأعيش من أجلك.. كم تكون الحياة جميلة!..

استرجع كل كلمة قالها والده الميت الحي.. زم شفتيه.. دار على عقبيه.. خرج من الحجرة ومن القصر.. هم على وجهه في الطرقات يتفرس في كل وجه يصادفه ولسان حاله يقول معاتبًا:

- هأنذا.. ألا تعرفونني.. أنا سعادة البك.. أنا ابن سعادة الباشا!

- عرج إلى ثلة كانوا بالأمس أصدقاءه أو بالأحرى أتباعه.. أخال في وسطهم مقعدًا شاغرًا.. إنه مقعده.. كان بالأمس مقعده.. كان يجلس وسطهم.. وهم من حوله.. عيونهم عليه.. وجوههم بشوشة مستحية.. أفكارهم وجوارحهم أسيرة له.

- لا ريب أن للمقعد صاحبًا غيري.. ويطوف الآن عواصم أوربا.. وخزانته مكدسة بالأوراق النقدية والمجوهرات.. يبعثر كما يحلو له بلا ضابط.. أياديهم تتلقف ما يبعثره.. أو.. أو يقذفها للسمك لو ظن أن الأسماك تتغذى على النقود!.. وليس له أب نصف ميت.. أو نصف حي.. وأنهم ينتظرون عودته في لوعة.

كلٌّ رآه.. وكلٌّ تفادى النظر إليه في تأفف.. كل هشه.. كما يهش بعوضة أو ذبابة.. كانوا يهشون ويهرعون للقائه.. وكانت رؤوسهم تنحني احترامًا.. أحس بالضياع كغريب ضل الطريق.. أَوَ ليسوا هم؟!.. يتهامسون ثم يضجون بالضحك.. انطلقت ألسنتهم بتعليقات لاسعة.. شاوية.. تجمعت الدماء في رأسه.. نظر من حوله نظرة المريب.. اندفعت الدماء في ساقيه.. فر هاربًا.. شعر بضحكاتهم تلاحقه.. وأصابعهم تشير نحوه.. الضحكات تصم أذنيه وتلسع كرامته.. لِمَ يضحكون؟.. لِمَ؟ وقف أمام واجهة زجاجية ليرى في وجهه ما يضحك.. قرأ الكآبة.. همَّ أن يبصق على الزجاج.. رآه صاحب الحانوت.. حدجه بنظرة استغراب واستنكار، ولسانه يهتف:

- مجنون؟!

خبطت الكلمة أذنيه، وتخبطت في رأسه.. جرى بأقصى سرعته.. وقف على «الكوبري».. يلتقط أنفاسه.. اقترب من السور.. أرسل طرفه إلى المياه.. المياه هضاب صغيرة تتلألأ رؤوسها كأنما ترحب به.. سرح قليلًا.. نظر إلى راحتيه وأصابعه..

- إنهما مشلولتان ناعمتان..

لا يخبر غير القبض على الأموال ونثرها في كل مكان وأوان..

- كيف أعيش؟.. بل لِمَ أعيش؟ .. لِمَ؟.. ما قيمة الشباب بلا أوراق حمراء؟..

على صفحة المياه، ظل يقرأ سطور مستقبله، خال أنه يغوص في لجتها.. المياه تندفع في رئتيه لتزهق روحه.. جحظت عيناه.. غشي وجهه شحوب الموت.. تذكر والده كومة العظام..

- تلك الكومة سبب الدمار.. وما زالت تواصل التخريب لا موت ولا شفاء.. أنفاس تحرق ما يصادفها.. أشد فتكًا من البركان..

نظر إلى الطريق الأسود.. عاد أدراجه إلى القصر.. الدوار يجتاح رأسه.. أحشاؤه تصرخ.. طبول تنشر الرعب في كيانه.. الضحكات ترن في أذنيه.. الأصابع تشير نحوه.. دخل مهرولًا.. صعد الدرجات قفزًا.. انطلق في الردهة.. أغلق النوافذ.. جرى إلى حجرته.. وقف أمام صورة أمه.. ما زالت نظرتها ساخرة.. كل ملامحها تنطق بالتهكم.. سياط تلهب جسده.. قفل

عائـدًا.. وقـف أمـام حجـرة والـده.. قلبـه يـدق.. قـده يتزلزل.. مطـارق تنهـال عـلى رأسـه.. أصـدقاء الأمـس يقهقهون.. أصابعهم تكاد تخترق ظهره.. أو تفقأ عينيـه.. دخل الحجرة.. أضـاء المـصباح، فبـدا الـضوء شـاحبًا.. اشتم رائحة مهيجـة.. هاجـت الريـاح خـارج القـصر.. دوّت.. خرجت الكلمات من بين أسنانه:

- عليَّ إنقاذ ما يمكن..

اتجـه إلى الفـراش.. تأمـل الكومـة.. أعـصابه تحـترق.. انتشرت في جسده رعدة.. بهت حين رأى الكومـة تتحـرك، وصـوت ينبعـث منهـا.. انتفخـت طاقتـا أنفـه.. تقلـصت عضلاته، وتشنجت أطرافه.. ضـغط عـلى فكيـه.. نظـر إلى الفراش، فانتفضت الكومة.. حدق إلى وجه والده الممتقـع.. رفـع يـدين حديـديتين.. طـاش صـوابه حـين رأى شـفتيه تتحركان.. هوى على عنقه قبل أن ينبـث بحـرف.. ضـغط بكل قوته بين صياحه وزعيقه كأنما يطـرد روحـه.. اتـسعت عينا الأب وبرزتا.. وسرعان ما انطفأت منهما الحياة.. جعـل يحملق إلى الجثة بين لهاثه.. ارتعدت فرائصه حـين تخيـل أنـه سمع صوته.. الرعشة تهزه هزًّا.. طفـرت مـن عينيـه دمـوع حـسبها دمـوع الفرحـة.. ارتـج الفـراش بـاهتزاز رجليـه، فأصابه الذعر.. حملق إلى الجثـة.. فغـر فـاه وعينيـه.. شـبح والده يتحرك!.. قفز من فوق الفـراش.. جـرى مـذعورًا.. اصطدم بالباب.. أمسك بـالمقبض قبـل أن يهـوي.. نهـض مرتاعًا.. واصل عدْوه إلى حجرته.. يتعثر في الأشياء.. وقف يلهث.. ارتكن على مكتبه.. وأخذ يهذي بصوت غريب:

- غدًا تنمحـي الكآبـة.. وينكـشح الظـلام.. سـتدق ساعة الحائط معلنة عودة الماضي السعيد.. سـيدوي نفـير

عربتي، ويعلو فوق صخب الضحكات.. سأعود لأسحق الهامات.. وأطأ الرقاب.. وأرسل الذل والهوان.. غدًا يخضعون ويذعنون.. اليوم.. اليوم ميلادي..

شيء يطبق على صدره.. توقف عن هذيانه.. الرعب يزحف إلى قلبه.. اصطدمت عيناه بصورة أمه.. إنها تخرج من إطارها مكشرة عن أنيابها.. ملامحها تنطق بالشر المستطير.. هرول مذهولًا، وصوته يرن في الأطلال:

- الأشباح تطاردني.. سيزهقون روحي.. قتلت والدي.. وكيف أقتل الأشباح؟..

دخل حجرة والده.. أمسك بالجثة يهزها في جنون.

- بالله عليك أن تنطق.. ارحمني.. خذ بيدي.. أسترحمك أن تبعد الأشباح عني..

أنَّى للأموات أن تنطق.. أو تسعى لإنقاذ الأحياء.. انهالت يده تدق وجهه.. وأظافره تمزقه.. الصراخ.. الصراخ يملأ الآفاق.. واختلط الصراخ بجلبة الناس..

أشرق الضياء.. وفي دار المجذوبين.. وقف أحدهم.. وعلى وجهه ارتسم الذهول.. ترتفع ضحكاته.. وصرخاته كل حين.. يرفع يديه متحاشيًا شيئًا مجهولًا.. وقد اختلطت أمامه السعادة بالشقاء والفقر والثراء.. والليل والنهار.. فاقدًا كل شيء إلا أنفاسه التي تتردد برغمه.

* * *